العرب
الجمعة 2020/04/03
السنة 42 العدد 11666

فيلم «أرض العسل» بسيط وعميق ومدهش

مفاجأة تسجيلية من مقدونيا كادت تحصد الأوسكار

فيلم يتميز بتكويناته البصرية

"أرض العسل" هو الفيلم الخامس الذي كان مرشحا لجائزة الأوسكار عن أفضل فيلم عالمي. وهو الوحيد بين الأفلام الخمسة التي رشحت للجائزة، من النوع التسجيلي، كما كان أول فيلم من مقدونيا يصل إلى ترشيحات الأوسكار.

أمير العمري
كاتب وناقد سينمائي مصري

"أرض العسل" Honeyland مفاجأة حقيقية غير متوقعة سواء على صعيد الموضوع أو الأسلوب. إنه ليس فيلما كبيرا من الأفلام المُبهرة تقنيا ذات الموضوعات المُركّبة متعدّدة الطبقات، فهو عمل بسيط كبساطة الشعر الذي يفيض بالمشاعر والإيحاءات. فموضوعه يعتمد على التعمّق في حياة شخصية، لا رواية قصة.

وراء تلك الشخصية التي يتوقّف أمامها طويلا في وحدتها وعذابها وصمودها وتفاؤلها الدائم، وإصرارها على مواصلة العمل رغم كل الظروف الشاقة المستحيلة التي تعيش فيها، والقدرة في نفس الوقت، على الاستمتاع بالحياة. إشارات بسيطة وإن لم تكن مباشرة، إلى ما يحدث للطبيعة والكائنات التي تكاد تنقرض تحت تأثير ما يمارسه البشر من تدمير.

حياة رتيبة

يلفت فيلم "أرض العسل" أنظارنا أيضا إلى معاناة بقايا أجيال قديمة تُركت وأهملت وأصبحت تعيش في عزلة شبه تامة عن العالم، في مناطق جبلية وعرة هجرها سكانها. أما الذين ظلوا هناك، فوجدوا أنفسهم عاجزين عن الانتقال للعيش في المدينة، ففي هذه المنطقة الجبلية وسيلة العيش الوحيدة التي يمكنهم التشبّث بها والاعتماد عليها، هو العسل.

الشخصية التي يتركّز عليها اهتمام الفيلم هي "حديز"، امرأة قروية في منتصف الخمسينات من عمرها، تُقيم في تلك المنطقة الجبلية من شمال مقدونيا التي تبعد كيلومترات عدة عن سكوبيا العاصمة. وهي تعيش مع أمها الطاعنة في السن التي تُعاني من الأمراض وتعجز عن النهوض من الفراش داخل كوخ بدائي، لم تُغادره منذ سنوات.

تنتمي حديز إلى الأقلية التركية المسلمة من تلك المنطقة في شمال مقدونيا التي عرفت اختلاطا عرقيا بين البوسنيين والأتراك والمقدونيين كما نعرف في بداية الفيلم. وهي تقيم هناك في كوخ خشبي صغير بائس محرومة تماما من الكهرباء والمياه، تعتمد على جمع الثلج لتحوّله إلى ماء، وعلى إشعال النار في الحطب للتدفئة.

وقد ابتكرت طريقتها البدائية الخاصة في تربية النحل في خلايا تقليدية، للحصول على عسل النحل النقي الذي تجمع نصفه لتبيعه، وتترك النصف الثاني ليتغذّى عليه النحل.

وبين فترة وأخرى، تذهب إلى المدينة لبيع العسل الذي وضعته في أوعية زجاجية، يشتريه منها التجار الذين يُقدّرون قيمته، وتعود هي ببعض المأكولات وأهمها ثمار الموز التي تُقدّمها لأمها العجوز التي لا يمكنها المضغ بسهولة.

بداية المشاكل

تتحوّل حياة هذه المرأة بالكامل عندما تصل عائلة رجل يدعى "حسين"، مع سبعة أطفال وزوجته، ووراءهم قطيع كبير من الأبقار والماعز. في البداية تشعر حديز بالسعادة والألفة من وجود الأطفال، تُداعبهم وتلهو معهم، وتشعر أنهم يُؤنسون وحدتها وترتبط بطفل معيّن من بينهم، ترعاه وتتجاذب معه أطراف الحديث. ولكن بعد قليل يبدأ الأطفال في نشر الفوضى والضجيج، يتشاجرون مع بعضهم، ويتسبّبون في حوادث يُمكن أن تؤدي إلى كوارث.

أما المشكلة الأكبر فتأتي من جانب حسين نفسه. فالرجل في حاجة إلى المال لكي يُطعم أبناءه السبعة وأمهم، فيقوم بدوره بعمل خلايا للنحل. لكنه تحت ضغوط التاجر الجشع الذي يشتري منه العسل، لا يستطيع الصبر إلى أن يصبح من الممكن جمع العسل، بل يريد أن يجمع ما تكوّن قبل أن يُصبح صالحا تماما، كما أنه يجمعه كله من دون أن يترك للنحل شيئا يتغذّى عليه، وهو يصمّ آذانه عمّا توجهه إليه حديز من نصائح. والنتيجة أن يلتهم نحل حسين نحل حديز ويقضي عليه ويحرمها بالتالي من مصدر دخلها الوحيد.

تتوفى والدة حديز، ويصيب مرض ما قطيع الماشية الخاص بعائلة حسين فيُنفق البعض منها، فترحل العائلة عن المكان تاركة حديز خلفها وحيدة، يتعيّن عليها الآن أن تبدأ من جديد. فهي لا تعرف اليأس، وقد رأينا كيف يُمكنها أيضا العثور على السعادة بطريقتها الخاصة. لكن سعادتها الكبرى تكمن في تغذية النحل والتغذّي على ما ينتجه.

الموضوع مُقبض مُحزن يثير الكثير من التساؤلات حول أمثال هذه الكائنات البشرية التي تعيش حياة شاقة قاسية معزولة في الجبال. لا أحد يهتم بها. نعم هناك لمسة من لمسات سينما الأجناس البشرية (الأنثروبولوجي). أي دراسة فصيل ما من تلك الفصائل البشرية ذات الهوية الخاصة، التي تُحافظ على لغتها وطريقتها في التخاطب والمرح والغناء والفلكلور عموما. ولكن الفيلم في نفس الوقت، يُبرز المخاطر التي تتعرّض لها الكائنات الطبيعية (النحل هنا) وكيف يقضي الإنسان عليها نتيجة الجهل والحماقة والجشع.

إلاّ أن أهم ما يميّز الفيلم الذي اشترك في إخراجه كل من تمارا كوتفيسكا ولوبومير ستيفانوف وجرى تصويره على ثلاث سنوات، صورته البديعة التي تبرز التناقض بين حياة البؤس وجمال الطبيعة في تلك المنطقة الساحرة في أعالي جبال شمال مقدونيا. أضف إلى ذلك قدرة الكاميرا على التقاط أدق التفاصيل والتسلل داخل حياة حديز، والتوقّف أمامها وهي تُطعم أمها العجوز وتتبادل معها الحديث بصعوبة، ثم وهي تبيع مُنتجها في سوق المدينة، أو تعود لتلعب وتمرح مع الأطفال، وكيف تتعامل برقة مع النحل، ومع الحيوانات الموجودة حولها: القطط والكلاب.

إن جوهر هذا الفيلم وسرّ سحره ورونقه يكمن في قدرة مخرجيه على تلك المتابعة الدقيقة لأدق تفاصيل حياة الشخصية دون أن يشعر المُتفرّج بأنه يشاهد فيلما، أو أن الذين يظهرون على الشاشة سبق تدريبهم وطُلب منهم إعادة تمثيل أدوارهم في الحياة. فنحن نرى، على سبيل المثال، كيف يتناقش حسين مع تاجر العسل في حدّة وكيف تتشاجر حديز مع حسين أمام الكاميرا مباشرة دون أن يبدو أن أحد منهما يشعر أصلا بوجود الكاميرا، وكذلك الأطفال وهم يحتدّون ويتشاجرون مع أمهم أو أبيهم عندما يوجّه إليهم توبيخ أو لوم وتعنيف.

رغم تصوير الفيلم على مراحل وعلى فترة طويلة، إلاّ أن الإيقاع يتميّز بالسلاسة والانتقال السلس بين مشاهده وأجزائه المُختلفة، بين الداخل والخارج، الجبل والمدينة، الحيوانات والبشر. وهو إيقاع بطيء مُتمهّل يُتيح الفرصة للمُشاهد للتأمّل في تلك الحالة الإنسانية التي يُصوّرها الفيلم ويتوقّف أمامها، كما يتناسب هذا الإيقاع مع طبيعة الحياة وإيقاعها في منطقة تستعصي على التغيير أو التحديث.

"أرض العسل" تحفة بصرية من الطراز الأول وعمل سينمائي بليغ شديد البساطة والعُمق في آن.

العمل بسيط، كبساطة الشعر الذي يفيض بالمشاعر، وموضوعه يعتمد على التعمّق في حياة شخصية

مخرج سينمائي تونسي يعيد عليسة إلى صور

«الرجل الذي أصبح متحفاً» تسجيلي لمروان الطرابلسي

من الأفلام التي شدّت انتباه جمهور مهرجان الأقصر للسينما الأفريقية التاسع، قبل الإعلان عن إيقاف فعالياته الجماهيرية إثر تفشي فايروس كوفيد- 19 بصعيد مصر، الفيلم الوثائقي التونسي "الرجل الذي أصبح متحفا" لمخرجة مروان الطرابلسي، الذي تميّز بشجنه وشاعرية إضافة إلى رمزيته.

صابر بن عامر
صحافي تونسي

شارك التسجيلي الطويل التونسي "الرجل الذي أصبح متحفا" لمخرجه مروان الطرابلسي في فعاليات الدورة التاسعة من مهرجان الأقصر للسينما الأفريقية (من 5 إلى 11 مارس) ضمن مسابقة الأفلام الوثائقية الطويلة، والتي ذهبت جائزتها الأولى (قناع توت عنخ آمون الذهبي) إلى الفيلم السنغالي "الوقت في صالحنا" للمخرجة كاتي لينا نداي. فيما نال الفيلم التونسي إشادة كلّ من حضر عرضه العالمي الثالث بالأقصر، وذلك لجدّة طرحه وجودة اشتغاله البصري الأقرب إلى التشكيل السينمائي.

ويعدّ التسجيلي "الرجل الذي أصبح متحفا" (61 دقيقة) ثالث فيلم وثائقي للمخرج والتشكيلي التونسي مروان الطرابلسي (40 عاما)، بعد "صامدون" (2012) و"المُغرّبون" (2014)، علاوة على فيلميه الروائيين القصيرين "في عيني طفل" (2007) و"أمي نجم النجوم" (2008).

و"الرجل/ المتحف"، كما يحلو لي عنونته، فيلم يتناول بالصورة والصوت سيرة ومسيرة الفنان التشكيلي التونسي الراحل حديثا علي عيسى (20 مارس 1938 / 19 ديسمبر 2019)، وهو مؤسّس ومدير "الرواق الوطني محراب الفنون"، أو غاليري "عليسة" بيته ومرسمه، بجهة باردو (ضواحي العاصمة تونس) والذي أقام فيه بمفرده منذ أعوام.

وبإيقاع بطيء، كحال يوميات عيسى العجوز المُنهك الذي أعيته وحدته، بعد أن اختار عن طواعية الانعزال في محرابه/ مرسمه، تتبّع كاميرا الطرابلسي مسيرة الفنان/ اللغز. لغز في انعزاله، ولغز في ألوانه ولغز في طريقة عيشه.

مسيرة زاخرة

تحدّث التشكيلي (الراحل) في الفيلم عن مساره التعليمي، وهو الذي زاول تعليمه الثانوي بالمعهد الثانوي ببنزرت قبل أن ينتقل للدراسة الجامعية بمدرسة الفنون الجميلة بتونس العاصمة في بداية الخمسينات من القرن الماضي. ليتلقّى إثرها أكثر من تكوين أكاديمي بمعاهد وأكاديميات أجنبية على غرار الأكاديمية اللبنانية للفنون الجميلة والجامعة الأميركية ببيروت. كما عمل في مجال التدريس في تونس وكذلك لبنان.

كما تحدّث عيسى عن التتويجات والجوائز المحلية والعالمية التي حصل عليها خلال مسيرته الفنية الطويلة من فرنسا وإيطاليا وكذا وتونس، لعل أهمها الميدالية الذهبية للمهرجان الدولي للرسم بتونس (1992)، والميدالية الفخرية عن أكاديمية باريس الشرقية للفنون البصرية والتشكيلية (1986)، والميدالية الفضية عن الأكاديمية الدولية بمارينا الإيطالية. وهو الذي يمتلك رصيدا كبيرا وثمينا من الأعمال التشكيلية التي يبلغ عددها حوالي ثلاثة آلاف عمل.

معلومات تبدو بديهية وعادية لكل مُهتم بالشأن الثقافي التونسي، أو ذاك الذي عرف الفنان / الراحل عن قرب، ولو لمرحلة ما من حياته، كحال كاتب هذه الأسطر. لكن الجديد/ المُفاجئ في فيلم الطرابلسي ذاك البوح غير المُعلن مُسبقا من فنان عهدناه كتوما، شحيح الكلمات.. ثرثار الألوان.

تحدّث عيسى، في بداية الفيلم، عن نبوءته بوفاة والده وهو طفل صغير، وهو ما حدث في الواقع، فبعد أن لاعب وداعب الوالد صغيره، وهو بين أحضانه، سأله: من أنا بنّي.. هل تعلم أنّني والدك؟

فقال الطفل/ علي ببراءة الصبا: بابا مات (أبي مات). وما إن ذهب والده لغُرفته ليستريح من شقاء يومه، حتى فارق الحياة في فراشه الوثير الهادئ.

هكذا اعترافات ما كان لها، أن تُعلن، لولا صبر مروان الدؤوب، على توثيق سيرة علي عيسى، والتي امتدت زهاء خمس سنوات من التصوير وإعادة التصوير لالتقاط اللحظات الأكثر حميمية ورمزية.

اعتراف آخر خصّ به الفنان صديقه الفنان، ذاك الذي أقرّ فيه عن أسباب عزوفه عن الزواج طوال سنوات حياته المديدة، وهو الذي أحب في حياته امرأة واحدة، تعرّف عليها أيام دراسته الجامعية في لبنان، وأنجب منها طفلا. لكنّ لعنة الموت تحضر مرة أخرى فتفجع عيسى في زوجته ووحيده إثر حادث مرور مروّع بجبل لبنان.

الموت، هذا الضيف الثقيل على جسد عجوز آثر الوحدة والرسم، داهمه هو هذه المرّة، يوم عرض فيلم مروان الطرابلسي بالمهرجان الدولي للفيلم الوثائقي بخريبقة المغربية في دورته الحادية عشر، والتي انعقدت في الفترة المُمتدة بين 18 وإلى 21 ديسمبر 2019.

ليتوّج الفيلم بثلاث جوائز دُفعة واحدة، وهي جائزة: أحسن إخراج، وجائزة النقاد وجائزة الغرفة المغربية للفيلم الوثائقي.

كاميرا متحفّزة

مروان الطرابلسي الذي قدّم في الفيلم إلى جانب كل ما سبق من اعترافات غير مسبوقة من قائلها رأسا، أجاد التعامل مع حركة الكاميرا التي تأتي أحيانا "كلوز آب" على وجه أو أصابع علي عيسى وهو يقطّع الخضروات، ليعدّ طعامه بنفسه. وفي أحيان أخرى لقطة شاملة بعيدة متى تعلّق الأمر بتمرير مشهد لرسومات الفنان باذخة الألوان.

ليغدو من هناك عنوان الفيلم "الرجل الذي أصبح متحفا" مُتسقا، تماما، مع التقاطات كاميرا مروان الطرابلسي، القريبة والبعيدة، وكأنه يُهجّينا من خلال حركتها ألف باء التكوين البصري/ السينمائي لرجل بات هو اللوحة، واللوحة هو.

مروان الطرابلسي استطاع عبر عدسته أن ينتزع بوح فنان عرفه كل من جايله شحيح الكلمات لكنه ثرثار الألوان

رجل أوصى في الفيلم بمنح بيته/ مرسمه بعد وفاته إلى الدولة التونسية، في حين يأتينا "تيتر" نهاية الفيلم بأغنية فيروزية، عنوانها "لبيروت"؟

هي ربما رحلة عكسية، هذه المرّة لـ"عليسة" الألفية الثالثة من باردو التونسية إلى صور اللبنانية، هي إحياء لأميرة بونيقية صنعت مجد "قَرْت حَدَشْت" (المدينة الجديدة)/ قرطاج حاليا، وعلي عيسى ومن ثمّة مروان الطرابلسي يُعيدان إليها بريقها مُجدّدا. أفلم يُسمّي علي عيسى رواقه/ بيته "عليسة"؟ وما أشبه اسم علي عيسى "مُجمّعا" بعليسة.

علي عيسى، هو اللوحة في الفيلم كما في الحياة